مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 3 (رت 72) السنة: 2023

عناية علماء المغرب الأوسط بالأبعاد التّربويّة في مصنّفاتهم الكلاميّة

Middle Maghreb scholars pay attention to the educational dimensions in their theological works

مريم علّاش [1]
طالبة دكتوراه مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلاميّة
جامعة الجزائر1
m.allache@univ-alger.dz
أ.د عمّار جيدل
جامعة الجزائر1
ardjidel@gmail.com

تاريخ الوصول 2022/06/26 القبول 2023/01/29 النشر على الخط 2023/03/15
Received 26/06/2022 Accepted 29/01/2023 Published online 15/03/2023

ملخص:

مرّ التّصنيف في علم الكلام بمراحل عدّة انتهى في آخرها إلى عصر الانحطاط في القرن الثّامن الهجري، والذّي يوصف بالجمود والحرفيّة والعقم الفكريّ والعلمي منهجا ومضمونا، ولكن بملاحظة بعض المصنّفات الكلاميّة بالمغرب الأوسط خلال هذا العصر يميّز النّاظر إليها نوع جدّة وتميّز لم تسبق في غيرها، ويتمثّل ذلك في الإشارة إلى البعد العمليّ لعلم الكلام مع ختم المصنّفات فيه بقسم للتّصوف حيث كان هذا سمة المنظومات في ذلك العصر، وهو ما يهدف إلى التّربية بعلم الكلام حيث يثمر استقرار معارفه في النّفس حصول اليقين المفضي إلى ضبط السّلوك بمحاسن الأخلاق التّي تترجم صحّة ما يتناوله من معارف عقديّة وتعبّر عن حسن أدائه لوظيفته التّربويّة.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط، علم الكلام، العقيدة، الأبعاد التّربوية، التّصنيف.

Abstract:

Classification in theology has gone through several stages, that was ended in the era of decadence in the eighth century AH. Actually, that era was marked with stagnation, subjectivity, and intellectual and scientific sterility in both parts method and content. However, when observing some theological writings in the central Maghreb of this age we find some aspects of creativity and authenticity that makes them different from the previous works. That can be shown in the scientific dimension of theology, and the classification in mysticism presented at the end of their writings which aim to educate via theology, Therefore that leads to the incarnation of knowledge in souls which leads to create a strong faith which effects the behavior positively in both morals and education and that helps to do the educational function effectively.

Keywords: central Maghreb; theology; Creed; educational dimensions; classification.

[1] المؤلّف المراسل: **مريم علاّش** البريد الإلكتروني: **m.allache@univ-alger.dz**

1. مقدّمة:

عرف علم الكلام منذ نشأته الاعتزاليّة أطوارا ومراحل عدّة تميّزت بالتّجديد فيه من ناحية المنهج والمضمون، وكان ذلك بدءا من مرحلة الباقلاني[1] (ت403هـ) الذّي أضاف إليه المقدّمات النّظريّة للاستدلال، ليتدعّم بعدها في مرحلة من مراحله بعلم المنطق الذّي أصبح معياره لسبر الأدلّة، وانتهى في مرحلته الأخيرة إلى خلطه بالفلسفة في أدواته ومواضيعه بحيث لا يتميّز أحدهما عن الآخر.

ولأنّ غاية علم الكلام في أصل نشأته هي تحقيق استقرار العقائد الإيمانيّة في الضّمير، فإن ضرورة وجوده ملحّةٌ وتطوّره مستمرٌ في الزّمن استمرار الحاجة إليه لتحقيق هذه الغاية التّي لا ينفك عنها زمن ولا مجتمع بشري يؤمن بعقيدة الإسلام ويعيش تحدّيات الحياة بملكاته الفكريّة والشّعوريّة. وإن اعتبرت كثير من الدّراسات القرون الأخيرة بدءا من القرن السّابع الهجري هي قرون انحطاط وجمود لعلم الكلام بحكم التّراجع الحضاري والسّياسيّ للأمّة الإسلامية الذّي انعكس برأيهم على الجانب العلميّ والفكري، فإنّ المتصفّح لبعض مصنّفات علم الكلام في هذه الفترة وبالأخصّ بالمغرب الأوسط يقف على نمط جديد في التّصنيف إمّا من حيث هندسة المصنّفات بإدراج مباحث جديدة تتقاطع مع علم التّصوف أو بإيراد الإشارات والتّنبيهات الدّالة على الجانب العملي للعقيدة، وكلّ ذلك يصبّ في الاهتمام بالأبعاد التّربويّة لعلم الكلام.

1.1. إشكاليّة البحث: انطلاقا ممّا سبق بيانه فإنّ السّؤال الرّئيس الذّي يطرح نفسه هو: كيف ربط علماء المغرب الأوسط بين علم الكلام وأبعاده التّربويّة في مصنّفاتهم الكلاميّة؟

2.1. أهداف البحث: تهدف هذه الورقات البحثيّة إلى تحقيق النّقاط الآتية:

- رصد صورة تطوّر التّصنيف في علم الكلام خلال مرحلة الانحطاط.
- إبراز جانب التّميز والإبداع في التّصنيف الكلامي عند علماء المغرب الأوسط.
- التّأكيد على تلازم العلم والعمل والمعرفة والسّلوك في علم الكلام.

3.1. المنهج المتّبع: لتحقيق أهداف الدّراسة سالفة الذّكر كان لا بدّ من الاعتماد على المنهج الاستقرائي والتّحليلي، باستقراء المصنّفات الكلامية المتضّمنة للأبعاد التّربوية ووصفها وتحليل مضامينها.

4.1. خطّة البحث: للإجابة عن إشكاليّة البحث وضعت خطّة مكوّنة من مقدّمة ومبحثين وخاتمة، وهي على النّحو الآتي:

مقدّمة: تتضمّن العناصر التّالية: مشكلة البحث وأهدافه والمنهج المتّبع في البحث، وفي الأخير خطّة البحث.

المبحث الأوّل: علم الكلام وبعده التّربوي بين الفصل والوصل:

- الوظيفة الدّفاعيّة لعلم الكلام.
- الوظيفة التّعليميّة والتّربويّة لعلم الكلام.

[1] هو محمد بن الطّيب بن جعفر البصري، أبو بكر الباقلاني، سيف السّنة، أصولي أشعري مالكي، والمتكلّم صاحب المصنّفات، توفي سنة 403هـ ببغداد، له تصانيف من أشهرها "الإنصاف" و"التّمهيد": يُنظر شمس الدّين ابن خلكان، وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزّمان، دار صادر، بيروت، دط، 1978م، ج4 ص270/269؛ وابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، ط1، 1989م، ج5 ص22/20.

المبحث الثّاني: الجانب التّربوي في المصنّفات الكلاميّة لعلماء المغرب:

- التّأكيد على البعد العملي للعلم.
- إضافة مضامين التّزكية والسّلوك إلى المصنّفات الكلاميّة.

خاتمة: تضمّنت أهمّ النّتائج المتوصّل إليها في البحث.

2. علم الكلام وبعده التّربوي بين الفصل والوصل

1.2 . الوظيفة الدّفاعيّة لعلم الكلام:

واجهت العقيدة الإسلاميّة على مدى التّاريخ تيّارات فكريّة معارضة لمضمونها أو لبعضه غايتها تحريف ذلك المضمون أو تقويض أركانه، وبلغت هذه التّحديّات درجة من الحدّة والتّركيز بحيث شكّلت خطرا حقيقيا على العقيدة الإسلاميّة. فلمّا أحسّ المسلمون بهذا الخطر الممتدّ إلى مفاهيم العقيدة نهضت ثلّة منهم للقيام بواجب الرّد على هذا الخطر بهدف المحافظة على أصول العقيدة التّي نطق بها الوحي، فجاءت ردودهم في شكل عمل عقلي تطوّر ليصبح علما قائما بذاته يمثّل أحد أهمّ العلوم الإسلاميّة ألا وهو "علم الكلام".

يتناول علم الكلام مفردات العقيدة المتمثّلة في التّوحيد والنّبوة والمعاد من وجهة نظريّة افتراضيّة تعتمد المحاجّة العقليّة وهذا ما يجعله يتميّز بالنّزعة التّجريديّة، فيجنح إلى الإيغال في بيانات واستدلالات عقليّة منطقيّة ممّا اضطر علماء الكلام إلى الاستعانة بمباحث تمهيديّة تخدم هذا الغرض مثل مبحث العقليّات والطبيعيّات. وهذا ما يميّز علم الكلام بمجموعة من الصّفات التّالية[1]:

1- الحركيّة والوعي: فتتغيّر مواضيع البحث عند المتكلّمين ومحور الاهتمام وأسلوب المواجهة عندهم بما يتّفق مع طبيعة الموقف وبمراعاة ما يردُ من الاعتراضات.

2- الحيويّة: فكانت القضايا التّي يعالجها قضايا حيّة في النّفوس، ومثّلت مشكلة حقيقيّة في حياة المسلمين وفي واقع تصوّرهم العقدي.

3- الواقعيّة: حيث كان يواجه شبها واعتراضات واقعة فعلا موجّهة ضدّ العقيدة، فلم ينجرّ إلى البحث النّظري المجرّد لذاته أو لعلاج قضايا وهميّة.

فارتبط اسم علم الكلام قديما وحديثا بوظيفة الجدل والمناقشة العقليّة المحتدمة كما تظهره أشهر تعاريفه، ومن ذلك أقدم تعريف معروف له وهو قولهم: «صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التّي صرّح بها واضع الملّة وتزييف كلّ ما خالفها بالأقاويل»[2]، هذا ما يظهر أنّ علم الكلام هو فن يحتاج إلى مران وتعلّم وأنّ وظيفته بالأساس هي الدّفاع عن الإسلام كلّه. ويؤكّد على ذلك أيضا تعريف الإيجي[3] (ت756هـ) لعلم الكلام في كتابه "المواقف" فيقول إنّ: «علم الكلام هو

---

[1] عبد المجيد النّجار، مباحث في منهجيّة الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م، ص117/116.

[2] أبو نصر الفارابي، إحصاء العلوم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1996م، ص86.

[3] هو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفّار بن أحمد الإيجي، عضد الدّين الشيرازي، كان إماما بالمعقولات عارفا بالأصلين والمعاني والبيان والنّحو ومشاركا في الفقه، من مؤلّفاته في أصول الفقه "شرح مختصر ابن الحاجب" وله في علم الكلام "المواقف"، توفي سنة 756هـ: يُنظر تاج الدّين السّبكي، طبقات الشّافعية الكبرى، دار هجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان، القاهرة، ط2، 1992م، ج10 ص47/46.

علم يُقتدر معه على إثبات العقائد الدّينيّة بإيراد الحجج ودفع الشّبه»[1]، فالغاية منه دائما هي الدّفاع ولكن قيّده بإثبات العقائد فقط دون غيرها من مجالات الدّين، ويكون ذلك حسب تعريفه إمّا من جانب الإثبات أي إيراد الحجج على صحّة العقائد الإسلاميّة أو من جانب الهدم بالرّد على شبهات المخالفين.

كما عرّف ابن خلدون[2] (ت808هـ) علم الكلام بأنّه «علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة والرّد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السّلف وأهل السّنة»[3]، وهو ما يشبه تعريف الغزالي[4] (ت505هـ) له بقوله: «المقصود منه حفظ عقيدة أهل السّنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة»[5].

فإن وظيفة علم الكلام حسب هذه التعاريف هي البرهنة على صحّة العقيدة الإسلاميّة عن طريق إثباتها بالأدلّة والبراهين والدّفاع عنها ضدّ الشّبه الواردة عليها، ويستعمل كوسيلة لذلك إلى جانب الآية القرآنيّة والسّنة النّبويّة الصحيحة استدلالات عقليّة قد تستند إلى مصادر الوحي وقد تكون من إبداع علماء الكلام بما يتماشى مع الشّبه الموجّهة إلى العقيدة أو الانحرافات الفكريّة والسّلوكيّة التّي يقع فيها النّاس والتّي تمسّ بجوهرها.

لقد قام علم الكلام بوظيفة الدّفاع عن العقيدة الإسلاميّة بشكل جيّد في أكثر الأحيان ابتداء من نشوئه إلى فترة تمتدّ للقرن السّابع الهجري بفضل إبداع العقل المسلم الذّي شكّلته العقيدة الإسلامية ودفعت به إلى العالم طاقة حركيّة فذّة وقدرة متميّزة على الابتكار والعطاء، ولكنّ هذا العقل ضربه العقم في بعض فتراته التّاريخيّة بعد ذلك التّوهج والإبداع اللّذين أشعلت فتيليهما تعاليم الوحي وأصيب بأزمة ثقة في نفسه. فدخل علم الكلام إلى طور الجمود وحلّت عليه الصّبغة الدّراسيّة التّي قوامها تاريخيّة الأفكار محلّ الصّبغة الدّفاعيّة التّي قوامها الرّد والإثبات وانحدرت المؤلّفات فيه إلى الحرفيّة والتّلهي بالشّرح والتّهميش والحاشية مهملة لقضيّته الحقيقيّة وهي مواجهة ما يجدّ من الشّبه التّي تواجهها العقيدة الإسلاميّة[6]، ودخل علم الكلام في مراحله التّاريخيّة الأخيرة إلى منعرج الدّفاع عن شرعيّته في مواجهة الموقف الذّي ظلّ إلى اليوم رافضا لهذا العلم بحجّة ابتداعه وغرقه في العقليات.

---

[1] عضد الدّين الإيجي، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، د ط، د ت، ص7.

[2] هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون، أبو زيد، وليّ الدّين الحضرمي الإشبيلي، فيلسوف متكلّم ومؤرّخ، عالم الاجتماع البحّثة وقاضي المالكيّة بمصر، توفي سنة 808هـ، اشتهر بكتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر" و"شفاء السّائل لتهذيب المسائل": يُنظر أحمد بابا التبنكتي، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، دار الكاتب، طرابلس، ط2، 2000م، ص252/250.

[3] عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، دار يعرب، دمشق، ط1، 2004م، ج2 ص205.

[4] هو محمد بن محمد بن أحمد الطّوسي، أبو حامد الغزالي، حجّة الإسلام. الفقيه الشّافعي والأصولي المتكلّم الأشعري، كما سلك طريق الزّهد والانقطاع والعبادة، وصنّف الكتب في شتّى الفنون منها "الوسيط" في الفقه و"المستصفى" في أصوله، و"إحياء علوم الدّين" و"تهافت الفلاسفة" و"الاقتصاد في الاعتقاد"، توفي سنة 505هـ: يُنظر ابن خلّكان، وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت، دط، 1398هـ/1978م، ج4 ص2018/2016؛ وابن عماد الحنبلي، شذرات الذّهب، مصدر سابق، ج6 ص18.

[5] أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضّلال، دار الأندلس، بيروت، ط7، د ت، ص71.

[6] عبد المجيد النّجار، مصدر سابق، ص117/115.

2.2 الوظيفة التّعليميّة والتّربويّة لعلم الكلام:

من خلال ما سبق ذكره يتبيّن أن علم الكلام يغرق في الاهتمام بالجانب العقلي ولا يشتغل بالجانب التّربوي الوظيفيّ والتّوظيفي، لأنّه لا يعلّم متلقّيه عقيدة تثمر آثارا عمليّة وإنّما يعلّمه دلائل ووسائل الدّفاع عن العقيدة لإثباتها وهدم الشّبه الواردة عليها، وكأنّ العقيدة قضيّة عقليّة فقط لا علاقة لمحتواها بالقلب وشؤونه[1].

لكنّ هذا ما يتضادّ مع ما تدلّ عليه تعاريف أخرى لعلم الكلام، مثل تعريف الكمال ابن الهمام[2] (ت861هـ) وهو: «معرفة النّفس ما عليها من العقائد المنسوبة إلى دين الإسلام عن الأدلة علما وظنا في البعض منها» وهذا التّعريف مأخوذ من تعريف أبي حنيفة للفقه الذّي أسماه بالفقه الأكبر وهو العلم بالأحكام الشّرعية الأصلية أي الاعتقاديّة[3]، فلم يورد في تعريفه ذكر المحاجة العقليّة ولا وظيفة الدّفاع وإنّما استعمل كلمة "معرفة" التّي تدلّ على الإدراك إمّا علما بمعنى الجزم المطابق للحسّ أو العقل أو العادة وإمّا ظنا أي الحكم الرّاجح أي تحصيل العقائد بالنّظر في الدّليل المفضي إلى المعرفة بعيدا عن التّقليد. وغاية هذه المعرفة المؤسّسة على الدّليل والمتأصلة في النّفس أن تثمر على مستوى الوجدان والسّلوك فتنضبط النّفس بها لتحقّق أبعادها التّربويّة الوظيفيّة، ذلك أنّ رسوخ العقيدة وتغلغلها في أعماق نفس المعتقد تجعلها قادرة على تحريك عواطفه وتوجيه سلوكه.

يدلّ على هذا المعنى أيضا تعريف ابن عرفة[4] (ت803هـ): «علم الكلام العلم بأحكام الألوهيّة وإرسال الرّسل وصدقها في كلّ أخبارها، وما يتوقّف شيء من ذلك عليه خاصا به، وتقرير أدلّتها بقوّة هي مظنّة لردّ الشّبهات وحلّ الشّكوك»[5]، فهذا التّعريف يعكس المنزع العمليّ للاشتغال بعلم الكلام حيث يتحقّق به رسوخ الاعتقاد في نفس المتلقّي ويتوسّل به إلى دحض ما يمكن أن يشوّش على هذا الاعتقاد من شكوك وشبهات وهو ما يفضي إلى تحقّق الأبعاد التّربويّة للعقيدة.

فمن وظيفة علم الكلام البحث فيما يجب على المسلم اعتقاده والإيمان به، ليقيم عليه البرهان الصّحيح الذّي يفيد أحد أمرين: إما العلم القطعي الذّي مستنده النّص الشّرعي صحيح الثّبوت وصريح الدّلالة، أو الظّن الغالب والرّاجح الذّي مبناه الدّليل الصّحيح والنّظر المفضي إلى رأي محتمل لكنّه راجح[6]، وكذا ليدافع عن العقيدة ضدّ الشّبه التّي قد ترد عليها. فبالبرهنة على هذه المبادئ العقديّة التّي يؤمن بها المعتقِد تستحكم في قلبه وضميره لتنعكس على تصرّفاته وسلوكه، والسّلوك هو ثمرة ما يحمله المتديّن من معتقد وترجمة مدى رسوخ ما يدين به من دين، فلعلم الكلام جانب علمي نظري وجانب عمليّ تطبيقي مبني عليه وهو دليل صحّة معارفه ونجاعة استدلالاته.

---

[1] عمّار جيدل، التّجديد في دراسة علم العقيدة، مجلّة الموافقات، الجزائر، 1416هـ/1995م، العدد4، ص70.

[2] هو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود، الكمال بن همام الدّين السيواسي ثم القاهري الحنفي، كان إماما علّامة عارفا بالجدل وأصول الدّيانات والتّصوف وبالتّفسير والفقه وأصوله وعلوم اللّغة، من مؤلّفاته "المسايرة في أصول الدّين" و"فتح القدير في شرح الهداية" و"كلمتان خفيفتان"، توفي سنة 861هـ: يُنظر شمس الدّين السّخاوي، الضّوء اللامع لأهل القرن التّاسع، دار الجيل، بيروت، د ط، د ت، ج8 ص132/127.

[3] الكمال ابن الهمام، كتاب المسامرة في شرح المسايرة، المكتبة الأزهريّة للتّراث، القاهرة، ط1، 2006م، ج1 ص10.

[4] هو محمد بن محمد الوَرغَميُّ، أبو عبد الله بن عَرَفَة، الإمام المقرئ العالم بالفروع والأصول وعلم البيان والمنطق، راوي الصّحيحين وموطّأ مالك، المتفرّد في زمانه بمشيخة العلم والفتوى في المذهب المالكي بحفظه له وضبطه لقواعده، من مؤلّفاته "المختصر الكلامي" و"المختصر الفقهي" و"المختصر الأصولي"، توفي سنة 803هـ: يُنظر ابن فرحون المالكي، الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار التّراث للطّبع والنّشر، القاهرة، د ط، د ت، ج2 ص333/331.

[5] محمد بن عرفة، المختصر الكلامي، دار الضّياء للنّشر والتّوزيع، الكويت، د ط، 2014م، ص78.

[6] نجم الدّين الطّوفي، حلّال العُقد في بيان أحكام المعتقد، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2016م، ص5.

يدعم هذا الرّأي ما سلكه بعض العلماء في هندسة مصنّفاتهم الكلاميّة، فضمّنوها مضامين تربويّة وإشارات تسليكيّة تعبّر عن الأبعاد النّفسيّة لعلم الكلام، وهو ما نقف عليه لدى بعض علماء المغرب الأوسط خاصة في القرن التّاسع الهجري فلم يكن تأليف مصنّفاتهم الكلاميّة لأجل المجادلة والمناقشة فقط بل كانت كذلك لأجل تحقيق المعرفة والعلم للمتلقّي فكان لها وظيفة تعليميّة، وذلك إلى جانب الوظيفة التّربويّة التّي يعبّر عنها رصّ المضامين السّلوكيّة إلى جانب المفردات الكلاميّة، فعلم الكلام ليس سوى وسيلة ولكنّ الغاية هي يقين المعرفة المفضي إلى تزكية النّفوس وتربيتها بالعقيدة.

3. البعد التّربوي في المصنّفات الكلاميّة لعلماء المغرب الأوسط

يهتم الإسلام في تكوينه للعقيدة بمخاطبة العقل والقلب واستثارة العاطفة والفكر وإيقاظ الانفعالات النفسية مع إثارة القوى الذّهنية، فالقضايا العقديّة ليست معادلات قانونيّة منفصلة وخالية من الرّوح في أبعادها الصّميمة، بل هي المبادئ الحيويّة التّي يربط عليها المسلم قلبه وقوامها القدرة على النّفوذ إلى ضميره وتحريكه ودفعه لتحويل مكتسباته المعرفيّة إلى توتّر روحي يترجمه في شكل نشاط عملي. فالعقيدة تبني الرّؤية الكليّة الدّافعة في الفكر والشّعور والحركة جميعا، وتنطوي على عناصر الدّفع المحقّقة لأقصى فعّاليات الإنسان المؤمن بها، لأنّ الفعّالية من صميم صفات العقيدة الإسلاميّة والتّي يثمرها استشعار مبادئها في شكل تجلّيات ذاتيّة وأبعاد وظيفيّة فرديّة ومجتمعيّة وحضاريّة، وهي الأبعاد التّربويّة المنوطة بحسن تمثّل المبادئ العقديّة والمستلزمة لقوّة يقين الاعتقاد بها فهي تمثّل ثمرة العقيدة.

وعلم الكلام باعتباره الحصن الحصين لحماية زعزعة يقين الإيمان بالعقيدة الإسلاميّة في ضمير المسلم فإنّه يرتبط ارتباطا وثيقا بالأبعاد الوظيفيّة للعقيدة، انطلاقا من البعد العقديّ الذّي هو الغرض الأصلي من إنشاء علم الكلام كما سبق الإشارة إليه وهو تصحيح العقيدة بمجابهة الانحرافات ودحضها بالأدلّة العقليّة، فإنّه لا يخلو من بعد علمي تعليمي بتلقين مبادئ العقيدة مصحوبة بأدلّتها اليقينيّة، ولا يتنصّل من البعد العمليّ الذّي لا ينفك عنه علم شرعي كما أشار إليه صاحب "الموافقات" في قاعدته المشهورة بقوله: «كلّ مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدُل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل: عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعا»[1]، مرورا بالبعد النّفسي المتمثّل في إخضاع غرائز المسلم إلى عمليّة شرطيّة ليس من شأنها القضاء على الغرائز أو اجتثاثها وإنّما ترشيدها وتنظيمها في علاقة وظيفيّة تتوافق مع مقتضيات مبادئ العقيدة الإسلاميّة فتنضبط الحيويّة الحيوانيّة التّي تمثّلها الغرائز بقواعد نظام هذه المبادئ وبهذا يتحرّر الفرد جزئيا من قانون الطّبيعة المفطور في جسده ويخضع وجوده إلى المقتضيات الرّوحيّة التّي طبعتها العقيدة في نفسه[2]، فتقدّم له الدّوافع الرّوحيّة التّي يمكن أن تبني الأشخاص لأنّها في أصلها تخاطب الرّوح هذا الجانب المهمّ الذّي تقوم عليه العلاقات الاجتماعيّة التّي هي ليست سوى ذلك الشّعور الموحّد الذّي يمكن من خلاله القيام بعمل مشترك، والعلاقة الرّوحية بين الله وبين الإنسان هي التّي تولّد العلاقة الاجتماعيّة حين تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان في صورة المبادئ الأخلاقيّة[3]، وهو ما ينتهي بالفرد المسلم إلى تحقيق البعد الاجتماعي للعقيدة حين يكون

[1] الشّاطبي، الموافقات، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 1435هـ/2014م، ج1 ص34.
[2] مالك بن نبي، شروط النّهضة، دار الفكر، دمشق، ط15، 1438÷/2017م، ص75/68.
[3] المصدر نفسه، ص76، 80.

نظام أفعاله المنعكسة[1] في أقصى فاعليّته الاجتماعيّة وتكون طاقاته الحيويّة[2] في أتمّ حالات تنظيمها ممّا يمتّعه بميزتين أنّ قواه جميعا في حركة وهذه الحركة دائمة صاعدة وهو يباشر وظيفته الاجتماعيّة، فنخلص بذلك إلى ضمان البعد السّلوكيّ الأخلاقي للعقيدة وكلّ ذلك بفضل الرّبط بين البعد العقليّ الدّفاعي لعلم الكلام بأبعاده الوظيفيّة جنبا إلى جنب غير مفصول عنها بدعوى التّجريد والعقلانيّة الكلاميّة.

ويؤكّد فكرة استحضار الجوانب العمليّة التّربويّة لعلم الكلام مجموعة من المصنّفات الكلاميّة التّي وضعها علماء الكلام في فترة من فترات تاريخ المغرب الأوسط وبالأخصّ في القرن التّاسع الهجري، وهو ما سنحاول إثباته من خلالها بغية إبراز وجه التّجديد والتّميز في المصنّفات الكلامية بالمغرب الأوسط خلال ما يُعرف بمرحلة الانحطاط.

1.3. التّأكيد على البعد العملي للعلم.

وضع علماء المغرب الأوسط مصنّفاتهم الكلاميّة بهدف تعليم العقيدة لا بهدف الرّد والدّفاع فقط، فجاءت في صياغتها وفي هندستها ميسّرة للمعرفة العقديّة مراعية لمستوى المتعلّم متدرّجة في تعليمه، فكتب مثلا الشّيخ محمد بن يوسف السّنوسي[3] (ت899هـ) عدّة مصنّفات تعكس هذه الغاية مثل "صغرى الصّغرى" و"أمّ البراهين" المعروفة بالصّغرى و"الكبرى" وشرحها وغيرها من المؤلّفات المذلّلة للمعارف والتّي تستهدف مختلف شرائح المجتمع باختلاف مستوياتهم المعرفيّة وهذا ما يبرز الوظيفة التّعليميّة لهذه المصنّفات الكلاميّة بتنزّل العلماء في العبارة لإفهام العوام، بالإضافة إلى كثرة التّأليف على نمط المنظومات والأراجيز تسهيلا لفهم وحفظ القضايا العقديّة بعيدا عن الإطالة في المسائل الكلاميّة وكثرة التّفريعات في معالجة المسائل التّي ميّزت مصنّفات علم الكلام في تلك الفترة.

وتقريب علم الكلام إلى العوام هو على خلاف ما ذهب إليه بعض علماء المشرق مثل أبي حامد الغزالي (ت505هـ) من إلجام العوام عن علم الكلام وكفّهم عن البحث في أدلّته وردّهم إلى ما نطق به الشّرع[4]. أمّا علماء المغرب الأوسط فكان لهم رأي مخالف في ذلك فوضعوا المصنّفات الكلاميّة التّي تخاطب المتلقّي بما يستوعبه مستواه المعرفي وتراعي مخاطبة العقل والقلب معا لاستثارة عاطفته وفكره وإيقاظ قواه الذّهنية إلى جانب انفعالاته النّفسيّة ممّا يثمر التزاما وسلوكا على مستوى جوارحه.

أشار السّنوسي (ت899هـ) في مؤلّفاته إلى البعد العملي لعلم الكلام مثل مصنّفه "المنهج السّديد في شرح كفاية المريد" والذّي شرح فيه نظم "كفاية المريد" بطلب من شيخه أحمد بن عبد الله الرّواوي[5]، والذّي أرسل منظومته اللامية إليه وطلب منه شرحها، فشرحها السّنوسي على أحسن ما يكون وجاء في شرحه بالأدلّة والبراهين وتوسّع في تناول المباحث وتقرير المسائل والرّد

---

[1] الأفعال وردود الأفعال المتبادلة التّي تتولّد بين الفرد والمبدأ العقدي الذّي يبعث فيه الحركة والنّشاط.

[2] الطّاقة الحيويّة هي الدّوافع الغريزيّة من دافع غذائي ةدافع التّملك والدّافع التّناسلي، وهي إمكانات بيولوجيّة ضروريّة للحياة الاجتماعيّة: يُنظر مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط13، 1437هـ/2016م، ص50.

[3] هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب، أبو عبد الله السّنوسي التّلمساني، الشّيخ الإمام، العلامة الولي الصّالح المتكلّم المتفنّن، كان غزير التّأليف مع دقّة التّحرير واشتهر بمؤلّفاته في العقائد مثل "أمّ البراهين" و"عقيدة أهل التّوحيد"، توفي سنة 895هـ: التّنبكتي، مصدر سابق، ص570/563.

[4] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين، دار المعرفة، بيروت، د ط، 1983م، ج1 ص31، 40، 51.

[5] هو أحمد بن عبد الله الرّواوي، شهاب الدّين أبو العبّاس الجزائريّ المالكي، كان حجّة في الأصلين والفقه والتّصوف واللّغة والحديث والقراءات ومن المشهورين بالصّلاح والعلم والورع، من مؤلّفاته "المنظومة الجزائريّة في العقائد"، توفي سنة 884هـ: يُنظر السّخاوي، مصدر سابق، ج1 ص374.

على الشّبه، فكان شرحه طويلا نسبيا عند مقارنته مع النّظم الأصلي، كما أنّه عظيم الفائدة في بابه ويظهر براعة السّنوسي في علم الكلام وتبحّره فيه مع بيان مراد الزّواوي في منظومته وزيادة البيان والتّوضيح عليها.

فيقول السّنوسي في معرض حديثه عن البعد العملي لعلم الكلام: «فأفضل العلوم كلّها بإطباق دليلي المعقول والمنقول، وتعاضد شهادة علمي الفروع والأصول، هو العلم المتعلّق بتوحيد الله تعالى وصفاته، المنجي القلب ممّا ارتبك فيه من وحل غياهب الشّكوك والأوهام، المنقذ له من التّلف في غمّة الجهل وما تراكم من ظلماته، ثمّ إثبات النّبوءة التّي هي الأصل الذّي ينبني عليه علم جميع الشّرائع والأحكام، وهي الأساس الذّي عليه يثبت ما تفرّق من قواعد عقائد الإسلام، ثمّ به يرتقي العبد في الإيمان باليوم الآخر واستحضار أهواله وثوابه وعقابه إلى أعلى درجات الإيقان وينهض لمعالي الأمور، وما يحصل له الفوز في الأخرى، متجافيا عن دار الغرور وعن كلّ ما هو فان»[1]، فالغرض من كلمة التّوحيد تنقية النّفس وحبسها عن اتّباع الهوى بملازمة أركان الإيمان لأنّ الإيمان وإن كان مطلوبا لذاته باعتباره الحقيقة الكبرى فإنّه يُطلب أيضا لما ينتج عنه من آثار التّوفيق والصّلاح[2]. فقضايا العقيدة ليست معادلات قانونيّة منفصلة عن العاطفة والرّوح وإنّما أساس التحصين الحقيقي الذّي يهدف إليه علم الكلام هو تحقيق الثّبات النّفسي الذّي يترجم إلى بعد عملي في واقع الحياة.

كذلك فعل شيخه أحمد بن عبد الله الزّواوي (ت884هـ) في منظومته المعروفة بـ"كفاية المريد وحلية العبيد" والمشهورة بالمنظومة الجزائريّة في العقائد، وهي قصيدة طنّانة في التّوحيد[3]، احتفى بها العلماء وأثنوا عليها لقيمتها العلميّة الكبيرة وعلى رأسهم محمد بن يوسف السّنوسي (ت895هـ) الذّي قال في مطلع شرحه على المنظومة الجزائريّة: «وإنّ من أفضل ما ألّف فيه (أي في علم الكلام) من المختصرات المغنية عن كثير من المطوّلات، منظوم الشّيخ الفقيه الإمام قدوة المتّقين، الولي العلّامة علم الأعلام، السّيد "أبي العبّاس أحمد بن عبد الله الجزائري"... إذ هو منظوم مشتمل على طريق هداية الخواص والعوام...»[4].

كما اهتم العلماء بتدريسها وتحفيظها لطلبة العلم في المجالس العلميّة خاصّة في القرن الحادي عشرة الهجري مثل مجالس الجامع الكبير بتارودانت بالسّوس الأقصى[5]، وكذلك بأغلان فيما بين مصر وطرابلس الغرب[6]. بالإضافة إلى اهتمامهم بشرحها مثل مثل شرح السّنوسي عليها الذّي سبق ذكره و "شرح كفاية المريد في علم التّوحيد"[7]، و"فتح المجيد بكفاية المريد شرح اللامية الجزائريّة

---

[1] محمد بن يوسف السّنوسي، المنهج السّديد في شرح كفاية المريد، دار الهدى، الجزائر، د ط، د ت، ص22/21.

[2] البوطي، شرح الحكم العطائيّة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2001م، ج1 ص210.

[3] محمد المختار السّوسي، خلال جزولة، تطوان، المطبعة المهديّة، ط1، 1379هـ/1959م، ج2 ص52.

[4] السّنوسي، المنهج السّديد في شرح كفاية المريد، مصدر سابق، ص22.

[5] مثل مجلس أبي زيد عبد الرّحمن التّمنارتي (ت1060هـ) الذّي كان يشرح فيه "كفاية المريد" على طلبة العلم: يُنظر عبد الرحمن التمنارتي، الفوائد الجمّة في إسناد إسناد علوم الأمّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، دط، 1428هـ/2007م، ص31.

[6] ختم الحسين بن محمد بن ناصر الدّرعي (ت1078هـ) "الجزائرية" و"شرح السّنوسي" عليها مرّتين على شقيقه شمس المعارف أبو عبد الله محمد بن ناصر الدّرعي (ت1085هـ): يُنظر أحمد بن أحمد الحضيكي، طبقات الحضيكي، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، ط1، 1427هـ/2006م، ج1 ص201.

[7] لأبي زيد عبد الرحمان التمنارتي (ت1060هـ)، وأصل هذا الشّرح هو الدّروس التّعليميّة التّي كان يلقيها على طلبته بتارودانت، فرغ منه سنة 1048هـ وأثنى فيه فيه على الزّواوي وعلى نظمه "كفاية المريد" بقوله: «...هذا تقييد ما تيسّر ممّا يعين على فهم أرجوزة الإمام العالم العامل العلّامة أبي العبّاس أحمد بن عبد الله الزّواوي الجزائري رحمه الله ورضي عنه، فإنّها لحلاوة نظمها، وقرب فهمها، وعموم النّفع بها، ينبغي الاعتناء بها...»: يُنظر عبد الرحمن التمنارتي، الفوائد الجمّة، مصدر سابق، ص31.

الجزائريّة في العقائد والتّوحيد"[1] والمعروف كذلك بـ "شرح على الجزيريّة"[2]، ومن العلماء من اختصر شرح السّنوسي "المنهج السّديد على كفاية المريد" لتسهيله على من استصعبه أو شقّ عليه طوله مثل "شرح المنظومة الجزائريّة في العقائد"[3] و "شرح على الجزائريّة في التّوحيد"[4].

وهذا الاهتمام بمنظومة الزّواوي تدريسا وشرحا يؤكّد قيمتها العلميّة في فنّ الكلام، وقد اقتصر الزّواوي فيها على أهمّ مسائل علم العقيدة وما يحتاجه المعتقد وتجنّب التّشعبات الكثيرة التّي لا يستوعبها المبتدئ في العقيدة فهو المقصود من هذا النظم، فقد كان هدف الزّواوي الاختصار تسهيلا للحفظ والفهم ثمّ الاعتقاد ولهذا لم يخض في دقائق مسائل علم الكلام ومباحثه كما لم يقدّم لفصول النّظم بالمقدّمات المنطقيّة المعهودة في مصنّفات علم الكلام المطوّلة. واعتنى الزّواوي في منظومته بأصول المذهب الأشعري في العقائد، ورتّب كلّ ذلك وفق نسق معرفي خاص حيث اشتمل النّظم على طريقي هداية الخواص والعوام، فضمّ فيه حلاوة النّظم المستميلة للطّباع وتقرير الأدلّة البرهانيّة للعقائد ثمّ وشّحها بخطابات تصوّفية، تهزّ النفوس النّائمة لتعظيم جناب الحقّ، ويدخل بها الضّعيف مع القويّ في سلك الانتظام، وتلك سنّة الله تعالى في تقرير الأدلّة في كتابه العزيز، وسنّة النّبي صلى الله عليه وسلّم وهي طريقة بليغة النّفع والأثر لتضمّنها الهداية العامة، وإنالة البغية لكلّ موفق يروم إلى الحقّ الوصول[5]، كما أشار الزّواوي في المنظومة الجزائريّة إلى القصد من هذا العلم وهو العمل، فيقول في البيت العاشر منه[6]:

ومنه يفهم ما يكفيه معتقدا فليشتغل بعد بالتّكليف من عمل

فغاية العلم العمل ولا يمكن للإنسان أن يقتصر على العلم وينسى العمل لأنّ العمل كالبناء الذّي أساسه العلم وكلاهما واجب على الإنسان، ويشير في آخرها إلى ذات الفكرة بقوله[7]:

فلازم العلماء العاملين به واسلك طريقهم وإن جهلت سَلِ

فدعا إلى ملازمة العلماء العاملين بالعلم لأنّ العمل دليل موثوقية العالم ونصحه لنفسه فهو يعلّم بمقاله وحاله فاستفادته من علمه شاهد على نجاعة هذا العلم وإفادته لغيره.

وقال السّنوسي معلّقا على منظومة شيخه: «في هذا المنظوم بعد بيان العلم الشّريف التّحريض في آخره على حسن العمل، وذكر ما يبعث العاقل على الجدّ فيما يحصل رضى الله المولى جلّ وعلا، والظّفر بالفوز الأسنى بعد حلول الأجل»[8]، فالغاية من هذا

---

[1] لعبد السّلام بن إبراهيم اللّقاني (ت1078هـ) المصري الحافِظ الفقيه الصّوفي شيخ المالكيّة بمصر: يُنظر إسماعيل بن محمد الباباني، هدية العارفين، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، دط، 1951م، ج1 ص571.

[2] الحضيكي، مصدر سابق، ج2 ص519.

[3] لأحمد بن تركي المنشليلي المالكي (ت979هـ) واحد من كبار علماء الأزهر الشّريف، وهو اختصار لشرح السّنوسي فاختصره إلى ما يقرب من النصف: أحمد بن تركي المنشليلي، شرح المنظومة الجزائريّة في العقائد، مصدر سابق، ص121.

[4] لقاسم بن صلاح الدّين الخاني الحلبي (ت1109هـ) الشّيخ الصّوفي العارف مفتي حلب: يُنظر محمد بن خليل المرادي، سلك الدّرر في أعيان القرن الثّاني عشر، دار البشائر الإسلاميّة، لبنان، ط3، 1408هـ/1988م، ج4 ص10.

[5] السّنوسي، المنهج السّديد في شرح كفاية المريد، مصدر سابق، ص22.

[6] أحمد بن عبد الله الزّواوي، المنظومة الجزائريّة في العقائد، دار الضّياء للنّشر والتّوزيع، الكويت، ط1، 2017م، ص93.

[7] المصدر نفسه، ص113.

[8] السّنوسي، مصدر سابق، ص22.

هذا العلم هي العمل لا مجرّد المناقشة لإفحام الخصوم ولا التّباهي بالقدرة على صياغة الاستدلالات المنطقيّة والرّدود المحيّرة للعقول والألباب.

2.3 . إضافة مضامين التّزكية والسّلوك إلى المصنّفات الكلاميّة.

أشار بعض علماء المغرب الأوسط في مصنّفاتهم الكلاميّة إلى التّزكية واهتمّوا فيها بالمعاني التّربويّة ومقاصد العقائد وكلّ ذلك يصبّ في تصفية القلب وتقويم السّلوك لتحقيق غاية التّخلق بمضامين الوحي والتّحقق بمعرفة المولى الحقّ، فربطوا في مصنّفاتهم بين علم الكلام وبين علم التّصوف كدلالة على تلازم العلمين وعلى ثمرة علم الكلام المتمثّلة في بعده التّربوي.

فمن مميّزات المصنّفات الكلامية بالمغرب الأوسط خلال القرن التّاسع وما بعده هو تقريبها بين علم الكلام والتّصوف بعقد فصل أو مبحث صوفي، وهذا التّفنن المنهجي يعتبر طريقا جديدة في التّصنيف الكلامي لم يسبقهم إليها علماء المشرق، وهو إبداع في حدّ ذاته يدعونا إلى الابتعاد عن السّطحية في التّعامل مع أعلام هذه المرحلة التّاريخيّة ومصنّفاتهم الكلاميّة والتّريث في إطلاق الحكم العام باتّسام هذه الفترة بالجمود وعدم الجدّة والاكتفاء بالتّعاليق والحواشي على المصنّفات الكلاميّة السّابقة مع تكرار مسائلها وقضاياها العقديّة، وهو ما سنحاول إثبات خلافه بعرض أمثلة من الإنتاج الكلامي بالمغرب الأوسط والتي مزجت البعد العقلي بالاتّجاه الرّوحي فألحقت فصول مصنّفاتها الكلاميّة بفصول صوفيّة ذوقيّة.

من بين هذه المصنّفات المنظومة الجزائرية لأحمد بن عبد الله الزّواوي المعروفة بـ"كفاية المريد" والتّي سبق التّعريف بها، فعقد الزّواوي في منظومته العقديّة قسما للتّصوّف من 50 بيتا ضمّنه تفاصيل في التّزكية والتّربية الرّوحيّة، وقال السّنوسي في ذلك واصفا فعل شيخه في منظومته: «وشّحها بخطابات تصوّفيّة تهزّ النّفوس النّائمة لتعظيم جناب الحق، ويدخل بها الضّعيف مع القوي في سلك الانتظام»[1]، فما ذكره في هذا الفصل هو ثمرة عقائد الإيمان المذكورة فيما سبقه من فصول المنظومة، والتّي قطع بها أصول الشّرك والتّكذيب من القلب واللسان والجوارح، لينتقل بعدها إلى قطع فروع الشّرك وآثاره من الظاهر والباطن، فيحقق تطهير النّفس من كدوراتها لتنكشف لها الأنوار وتصعد في منازل الأبرار وتترقّى في درجات الأولياء الفائزين بأعلى مقامات الدّين. ويتجلّى ذلك مبدئيا في جعله النّظر مطيّة حصول العلم واليقين في باب معرفة الله تعالى جامعا بين النّظر في الكون المنظور والنّظر في الكتاب المسطور للرّبط بين التّفكر في خلق الله والتّدبر في كتابه استجلابا لثمار هذا الرّبط المنشئ لليقين، كلّ ذلك بأسلوب مسترق للقلب نافذ إلى العقل فقال[2]:

فانظر إذا كنت ذا عقل وتبصرة — فهل ترى غير خلق الواحد الأزلي
كـم آية في كتـاب الله تُرشدنا — للفكر في خلـقه طـوبى لممتثل

وقال أيضا[3]:

فانظر لخلقته السّبع الطّباق وفي — عوالم الأرض من سهل ومن جبل
إذ قــال سبحـانه في أمره لـهما — أن اءتيا أتتا في الحين عن عـجل

[1] السّنوسي، مصدر سابق، ص22.
[2] أحمد بن عبد الله الزّواوي، المنظومة الجزائريّة في العقائد، مصدر سابق، ص94.
[3] المصدر نفسه، ص95/94.

فافهم مضمّن باقيها وكُن فطنا لما اقتضاه خطاب الله وامتثل

فالنّظر في ملكوت الله تعالى للاستدلال في رأي أحمد بن عبد الله الزّواوي هو من أفضل القربات وأنفعها للقلب لتحصيل العقائد الإيمانية والباعث على اليقين بها، فالقصد من النّظر هو توجيه القلب إلى الله تعالى وصرفه عن الشّواغل التّي تشوّش على يقينه مثل تعلّقه بالدّنيا والانصراف عن الذّكر وكلام الحقّ، فلا ينتفع النّاظر من نظره بمجرّد التّأمل في الأدلّة وإنّما يلزمه تخلية قلبه من كل ما يصرفه عن الحضور لشهود الحقّ، فلا يكفي تردّد البصر والعقل بالنّظر وإنّما أن ينظر طالب اليقين على بصيرة، وهذه إحدى الرّقائق واللّطائف التّي وشّح بها الزّواوي نظمه "كفاية المريد".

وأقرَّ أحمد بن عبد الله الزّواوي في مطلع الفصل الذّي عقده للتّصوف بكثرة التكاليف المتوجّهة من الله إلينا في ظواهرنا وبواطننا، ممّا يقتضي جهدا وقوّة عزم وتشميرا في طلبها، وممّا يعين على ذلك ملازمة العلماء العاملين والبعد عن غير العاملين إلا للضّرورة، والاعتماد مع كلّ ذلك على الله وحده في بلوغ المقصود، فصاغ لبيان هذا المعنى أبياتا رائقة تنضح عذوبة ورقّة وتترجم حقيقة اللّجوء إلى الله والافتقار له وحده، فقال[1]:

وثق بمولاك لا تبغي به بدلا فما عن الله جلّ الله من بدل
واضرع إليه بصدق فهو ذو كرم هذا السّبيل إليه أقرب السّبل
وقل إلهي يا من لا شريك له مالي سواك عليك اليوم متّكلي
فامنن عليّ بتوفيق ونيل تقى منك الهداية للتّوفيق للعمل

عرّج بعد ذلك إلى التّنبيه على عيوب النّفس وأنواع النّفس الإنسانيّة وطريق إصلاحها وتربيتها وهي المجاهدة فهي فطام النّفس عن المألوفات وحملها على غير هواها، فإذا جنحت إلى اتّباع الهوى وجب ردّها بلجام التّقوى ومراقبة الله تعالى في السّر والعلن، والتّخلي عن الصّفات الذّميمة والاتّصاف بالأخلاق الحميدة، مع الحذر من آفات اللّسان والحرص على حفظ الحواس فذلك من التّقوى، فمن أراد تحصين عقائده الإيمانيّة وجب عليه النّهوض بقواه العلميّة والعمليّة لجهاد نفسه والإخلاص لله تعالى في العبادة ظاهرا وباطنا. ودعا الزّواوي إلى التّخلق بالصّبر والرّضا والإخلاص والاشتغال بالآخرة وتقديم شأنها على شأن الدّنيا والمداومة على الطّاعات وعمل الخيرات والإكثار من ذكر المولى تبارك وتعالى والصّلاة على النّبي المختار، مع تأكيده على أنّ طريق السّير إلى الله تعالى لا يكفي فيه الأخذ بالأسباب الظّاهرة وإنّما رأس التوفيق فيه عدم الغفلة عن مسبّب الأسباب سبحانه فقال[2]:

أقول هذا ونفسي غير عاملة بكلّ ما قُلت ليت القول لم أقل
ألومها فعسى مولاي يرحمها قد يرحم الله إفضالا بلا عمل
فهو الموفّق للأعمال يخلقها لمن يشاء عن التّخصيص لا تسل

[1] المصدر نفسه، ص113.
[2] المصدر نفسه، ص115.

يتلمّس من ملاحظة النّظم حرص الإمام أحمد بن عبد الله الزّواوي على تحقيق التّوافق بين المعارف النّظريّة في علم الكلام وفي التّصوف وبين ثمارها العمليّة، لأنّ المعرفة بحقائق الإيمان واليقين في اعتقادها وإن كانت مقصودة لذاتها باعتبارها الحقائق الكبرى للوجود الإنساني في الأرض فإنّه يطلب أيضا معها ما تنتجه من آثار في العمل والسّلوك لأنّها شاهد صدقها وحقيقة العلم بها.

تُستَشفّ هذه المعاني أيضا من كلام أبي العبّاس أحمد ابن زكري التّلمساني[1] (ت900هـ) في منظومته الكلاميّة الموسومة بـ"محصّل المقاصد ممّا به تُعتبر العقائد" كما أشار هو بهذا الاسم في بدايتها ولكنّها معروفة بأسماء عدّة أخرى مثل: "العقيدة الكبرى في التّوحيد"[(2)]، و"مكمّل المقاصد"[(3)]، و"المنظومة الكبرى في علم الكلام"[(4)]، و"قصيدة سيّدي أحمد بن زكري في الكلام"[(5)]، وكذا "الأرجوزة"[(6)] لأنّها على بحر الرّجز تسهيلا للحفظ. وجمع ابن زكري في هذه المنظومة المسائل الكلاميّة التّي تشتمل عليها مباحث علم الكلام فاستغرقت أبواب الإلهيات والنّبوات والسّمعيات، ورصّعها بالفوائد العلميّة ودقائق المسائل المتفرّقة في كتب هذا العلم وتصانيف العلماء الأوائل، دون أي يهمل الإشارة إلى أصول أدلّتها النّقليّة والعقليّة، فتضمّنت من أدلّة التّوحيد ما يخرج به دارسها عن التّقليد ويقوّي ملكة النّظر والاستدلال لديه فيتبصّر بها المتعلّم ويتذكّر بها العالم.

وقد أبانت منظومة "محصّل المقاصد" عن موهبة ابن زكري العظيمة في قدرته على صياغة النّصوص الكلاميّة في شكل أبيات منظومة فقرّبت علم الكلام من طلبة العلم، وهذا ما دفع العلماء للاهتمام بنظم محصّل المقاصد بتدريسه وتعليمه حتّى أنّه خُصّص له كرسي علمي في المغرب الأقصى بجامع القرويين في فاس أيّام السّعديين عن يمين الدّاخل من باب الحفاة[7]. كما اهتم العلماء بشرحه مثل شرح أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم التّمنارتي الجزولي اللّكوسي (ت971هـ)[8]، و"نظم الفرائد ومبدي الفوائد في شرح محصّل المقاصد"[9].

---

[1] هو أحمد بن محمد بن زكري المغراوي المانوي التّلمساني، أبو العبّاس شيخ الإسلام الحافظ، عالم بالأصول والفروع مفسّر ومؤلّف بارع نظما ونثرا، من مؤلّفاته "بغية الطّالب في شرح عقيدة ابن الحاجب" و"محصّل المقاصد ممّا به تعتبر العقائد"، توفي سنة 900هـ: يُنظر التنبكتي، مصدر سابق، ص130/129.

[2] أحمد الوادي آشي، ثبت الوادي آشي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1983م، ص428.

[3] ابن عسكر الشّفشاوني، دوحة النّاشر، دار المغرب، الرّباط، ط2، 1397هـ/1977م، ص120.

[4] ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، دط، 1326هـ/1908م، ص41؛ والتنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص129؛ ومحمد مخلوف، شجرة النّور الزّكية، دار الفكر للطّباعة والنّشر، دط، دت، ص267؛ والحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1985م، ج1 ص45.

[5] محمد الكتّاني، سلوة الأنفاس، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، دط، دت، ج3 ص78.

[6] الحضيكي، طبقات الحضيكي، مصدر سابق، ج1 ص28.

[7] محمد حجي، الحركة الفكريّة بالمغرب في عهد السّعديين، دار المغرب، الرّباط، دط، 1396هـ/1976م، ج1 ص119.

وممّن جلس على هذا الكرسيّ في ذات العصر لتدريس "محصّل المقاصد" أحمد المنجور (ت995هـ) وبعد وفاته خلفه فيه أبو القاسم بن سودة المري (ت1054هـ) في قراءة نظم ابن زكري يومي الخميس والجمعة: يُنظر محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثّاني، دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، الرّباط، دط، 1397هـ/1977م، ج1 ص55.

[8] يعتبره المترجمون هو أوّل من فضّ ختام "محصّل المقاصد" إلا أنّه توفي قبل إتمامه: يُنظر التمنارتي، الفوائد الجمّة، مصدر سابق، ص172.

[9] وهو شرح أحمد بن علي المنجور (ت995هـ) المشهور.

ومن أوجه تميّز هذا النّظم أن ابن زكري عقد هو الآخر فصلا في آخر منظومته "محصّل المقاصد" للتّصوف وأشار إلى ذلك بقوله[1]:

وفي التّصوف تكون خاتمهْ به النّفوس من عيوب سالمهْ

فبيّن أنّ غرض وضعه لهذا الفصل المخصّص للتّصوف هو تخلية النّفس من الأخلاق الذّميمة بغرض تحليتها بالصّفات الحميدة، فهو وإن لم يناسب ما تقدّمه من مباحث في علم الكلام المناسبة الخاصّة فإنّه يناسبه على وجه العموم من حيث أنّ معرفة الله تعالى القائمة على النّظر والبراهين تثمر طبيعيا تزكية العمل السّلوكي. ويتكوّن هذا الفصل الصّوفي من أكثر من 60 بيتا قال في بدايته[2]:

فصل به خاتمة التّصوف لما جرى لـه من التّشوف
علم به تصفية البواطن من كدُرات النّفس في البواطن
به وصول العبد للإخلاص روح العبادة بالاختصاص
وذاك واجب على المكلّف تحصيله يكون بالمُعرّف
طريقة الأئمّة الصّوفية حسنة صحيحة مرويّة
بها جهاد النّفس في التّخلي وفي التّحلي الموجب التّجلي
فالأوّل الطّهارة العظيمة بمحو كلّ صفة ذميمة
وهي التّي تناقض التّعبدا وتقتضي نقيض ما هو الهدى

فلم يفصل في مصنّفه بين معارف علم الكلام وبين المنزع التّربوي، إذ الغرض منها عنده هو أن يتحلّى الإنسان بمقتضياتها، فجعلها جزءًا من الدّرس الكلامي غير مفصولة عنه، تأكيدا على الارتباط بين المعرفة العقليّة المبنيّة على النّظر والاستدلال الصّحيح في علم الكلام وبين المعرفة الوجدانيّة القلبيّة التّي يُنتجها علم التّصوف، فتناول في هذا الفصل طريق التّخلي عن الصّفات الذّميمة ومراتب التّحلي بمحاسن الأخلاق ومقامات اليقين ومقتضياتها من الوفاء بالعهود والحفظ للحقوق والحدود والرّضا بالموجود، وبيّن أنّ كرامة النّفس هي استقامتها على طريق العبوديّة، وأنّ غاية السّالكين هي الوصول إلى العلم الحقيقيّ بالله تعالى، مؤكّدا على الافتقار إلى توفيقه في هذه المعرفة بقوله[3]:

الله يجتبي إليه من يشا يهدي إليه من ينيب فخَشَا
شتّان بين من بربّه وصل ومن عليه بدليل استدل

[1] أحمد بن زكري التّلمساني، محصّل المقاصد ممّا به تعتبر العقائد، دار المعرفة الدّولية، الجزائر، ط خاصّة، 2011م، ج2 ص193.
[2] المصدر نفسه، ج2 ص300/299.
[3] المصدر نفسه، ج2 ص303.

وهو في ذلك ينظم كلام ابن عطاء الله السّكندري[1] (ت709هـ)[2] وفيما بقي من النّظم[3] في بيان قسمي المخصوصين بالقرب والوصول إلى معرفة الله تعالى وهم السّالكون والمجذوبون، واختتم ابن زكري نظمه كما فعل الزّواوي قبله بالحمد بالصّلاة على النّبي المختار وآله وصحبه الأطهار وردّ الفضل في التّمام إلى الله تعالى بقوله[4]:

فالحمد لله على تمامــه من فضله ذاك ومن إلهامه

والشّكر لله على التّوفيق لمذهب السّنة بالتّحقيق

يخلص النّاظر لهذه المصنّفات الكلاميّة إلى تلمّس سعيها الواضح والمضمر لإحكام الوصل بين تأسيس العقائد الإيمانيّة على قناعة عقليّة مبناها الدّليل والبرهان وبين ثمارها السّلوكيّة من تزكية النّفس وصلاح العمل وأساس ذلك معرفة الله تعالى حقّ المعرفة واللّجوء إليه في الأمور كلّها دقّها وجلّها. وهذا ما ميّزها عن غيرها من المصنّفات الكلاميّة وعزّز انتشارها بالمغرب الأوسط والمغرب الإسلامي ككلّ بل وصل صداها إلى المشرق الإسلامي، وهذا ليقين أصحابها أنّ العقل ليس هو الدّافع الوحيد في توجيه السّلوك بل هناك بُعد آخر أشدّ عصيانا في عمليّة البناء العقلي والنّفسي للإنسان وهي منطقة القلب محلّ الاعتقاد الذّي لا يوجد منفكا عن النفس التّي يسكن بدنها فهو مركبه وأعضاؤه هي جنده المشاهد بالعين والمقرونة بالشّهوات والأهواء.

فاعتمدت هذه المصنّفات على المزاوجة بين مسلك البرهنة والاستدلال العقلي على العقائد الإيمانيّة وبين مسلك الخطاب الصّوفي الملامس للرّوح والمجلي لسبل إصلاح النّفس بغية تحقيق ثمرة الإيمان بالعقيدة. وفي هذا إشارة إلى ما ينبغي أن ينتجه علم الكلام من معرفة باطنيّة مستقرّة في النّفس يحصل بها الاطمئنان الدّاخلي والثّمرة السّلوكيّة المتمثّلة في استقامة السّلوك والمترجمة لصحّة المعارف العقديّة، فلا ينبغي أن يظلّ علم الكلام منحصرا في دائرة المسائل العقليّة المحض التّي يصل المتعمّق بدراستها إلى حالة من الجفاء وقسوة القلب التّي تحجب القلب عن لباب التّوحيد وشهود سرّه الذّي يقوي الصّلة بالله تعالى.

4. خاتمة:

في نهاية هذه الدّراسة نخلص إلى جملة من النّتائج الآتية:

– الحكم بجمود علم الكلام بعد القرن السّابع الهجري هو باعتبار ما آل إليه وضعه في المشرق الإسلامي من تحوّله إلى تكرار للمباحث السّابقة واجترار للاستدلالات والحجج، ولكن من قصور النّظر والاطّلاع تعميم هذا الحكم على المغرب الإسلامي وغمط لحقّ علمائه المجتهدين، إذ تعبّر أعمالهم عن تجديد وإضافة على خطّ الإبداع الكلامي وهو ما يلحظه أيّ دارس لبعض مصادر هذا القطر المطبوعة والتّي تعتبر قطرة في بحر واسع من المصادر التّي مازالت مخطوطة رهينة الخزانات العامّة والخاصّة.

---

[1] هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، تاج الدّين السّكندري، إمام جليل فقيه زاهد، من مؤلّفاته "التّنوير بإسقاط التّدبير" و"الكلم الفارقيّة والحكم الحقيقيّة"، توفي سنة 709هـ: يُنظر حاجي خليفة، كشف الظّنون، دار الكتب العلميّة، بيروت، د ط، 1992م، ج1 ص502.

[2] يُنظر: ابن عبّاد النّفزي، غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائيّة، مطبعة وادي النّيل المصريّة، مصر، د ط، 1288هـ، ج1 ص28/27.

[3] المصدر نفسه، ج2 ص76/57.

[4] ابن زكري، محصّل المقاصد، مصدر سابق، ج2 ص304.

– اهتم علماء المغرب الأوسط في مصنّفاتهم الكلاميّة بالأبعاد العمليّة التّربويّة لعلم الكلام ومضامينه إلى جانب اهتمامهم بالاستدلالات العقليّة المنطقيّة فيه جنبا إلى جنب، فمن وظائف علم الكلام التّربية الوجدانيّة التّي تحقّق التّربية السّلوكيّة إلى جانب وظيفة الدّفاع عن العقيدة وحراستها من تشويش الشّبهات.

– من أهداف علم الكلام تحقيق استقرار المعرفة العقديّة في باطن النّفس ممّا يثمر على مستوى الجوارح محاسن السّلوك ومكارم الأخلاق، فهذا البعد العمليّ هو التّرجمة الفعليّة لصحّة المعارف التّي يثبتها علم الكلام بالدّليل العقليّ وينافح عنها ضدّ الشّبه والانحرافات.

– لا ينحصر موضوع علم الكلام في تناول المسائل العقليّة المحض بعيدا عن شؤون القلب والشّعور، بحيث يصل المتعمّق في دراستها إلى الجفاء والقسوة ممّا يحجب عنه مشاهدة أسرار التّوحيد التّي تقوّي صلته بربّه حال استشعاره لعظمة الخالق المتعال والرّغبة والرّهبة نحو من سوّاه وألهمه فجوره وتقواه والذّي يكون بمعرفته وجدانيا إلى جانب معرفته عقليا.

– موضوع علم الكلام المتمثّل في العقيدة هو مسألة حياة يثمر انفعال النّفس به صلاحها في الدّنيا والآخرة، وتقديمها بطريقة جافّة يؤثّر سلبا على البنية العقائديّة للمتلقّي، ممّا يستدعي الاهتمام فيه بالأبعاد النّفسيّة الوجدانيّة مثل الاهتمام بالجانب العقليّ فيه.

– من أهمّ خصائص علم الكلام في المغرب الأوسط خصوصا والمغرب الإسلامي عموما خاصة في القرن التّاسع الهجري وما بعده هي تداخله مع التّصوف العملي، حيث وشّح العلماء مصنّفاتهم الكلاميّة بخطابات صوفيّة تهزّ موات النّفوس للانخراط في سلك السّائرين إلى الله الطّامعين في القرب والحظوة.

5. قائمة المراجع:

1/ ابن خلّكان، وفيات الأعيان، دار صادر، (بيروت: دط، 1398هـ/1978م).
2/ ابن عبّاد النّفزي، غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائيّة، مطبعة وادي النّيل المصريّة، (مصر: دط، 1288هـ).
3/ ابن عسكر الشّفشاوني، دوحة النّاشر، دار المغرب، (الرّباط: ط2، 1397هـ/1977م).
4/ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، (بيروت: ط1، 1989م).
5/ ابن فرحون المالكي، الدّيباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، دار التّراث للطّبع والنّشر، (القاهرة: د ط، د ت).
6/ ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثّعالبية، (الجزائر: دط، 1326هـ/1908م).
7/ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين، دار المعرفة، (بيروت: د ط، 1983م).
8/ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضّلال، دار الأندلس، (بيروت: ط7، د ت).
9/ أبو نصر الفارابي، إحصاء العلوم، دار ومكتبة الهلال، (بيروت: ط1، 1996م)
10/ أحمد بابا التبنكتي، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج، دار الكاتب، (طرابلس: ط2، 2000م)
11/ أحمد بن أحمد الحضيكي، طبقات الحضيكي، مطبعة النّجاح الجديدة، (الدّار البيضاء: ط1، 1427هـ/2006م)
12/ أحمد بن عبد الله الزّواوي، المنظومة الجزائريّة في العقائد، دار الضّياء للنّشر والتّوزيع، (الكويت: ط1، 2017م).
13/ أحمد الوادي آشي، ثبت الوادي آشي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: ط1، 1983م)
14/ إسماعيل بن محمد الباباني، هدية العارفين، دار إحياء التّراث العربي، (بيروت: دط، 1951م)

15/ البوطي، شرح الحكم العطائيّة، دار الفكر، (دمشق: ط1، 2001م).
16/ تاج الدّين السّبكي، طبقات الشّافعية الكبرى، دار هجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان، (القاهرة: ط2، 1992م).
17/ حاجي خليفة، كشف الظّنون، دار الكتب العلميّة، (بيروت: د ط، 1992م).
18/ الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ط2، 1985م).
19/ الشّاطبي، الموافقات، دار الغد الجديد، (القاهرة: ط1، 1435هـ/2014م).
20/ شمس الدّين ابن خلكان، وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزّمان، دار صادر، (بيروت: دط، 1978م).
21/ شمس الدّين السّخاوي، الضّوء اللامع لأهل القرن التّاسع، دار الجيل، (بيروت: د ط، د ت).
22/ عبد الرحمن بن خلدون، المقدّمة، دار يعرب، (دمشق: ط1، 2004م)
23/ عبد الرحمن التمناريتي، الفوائد الجمّة في إسناد علوم الأمّة، دار الكتب العلميّة، (بيروت: دط، 1428هـ/2007م).
24/ عبد المجيد النّجار، مباحث في منهجيّة الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: ط1، 1992م).
25/ عضد الدّين الإيجي، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، (بيروت: د ط، د ت).
26/ الكمال ابن الهمام، كتاب المسامرة في شرح المسايرة، المكتبة الأزهريّة للتّراث، (القاهرة: ط1، 2006م).
27/ محمد بن خليل المرادي، سلك الدّرر في أعيان القرن الثّاني عشر، دار البشائر الإسلاميّة، (لبنان: ط3، 1408هـ/1988م)
28/ أحمد بن زكري التّلمساني، محصّل المقاصد ممّا به تعتبر العقائد، دار المعرفة الدّولية، (الجزائر: ط خاصّة، 2011م).
29/ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثّاني، دار المغرب للتّأليف والتّرجمة والنّشر، (الرّباط: دط، 1397هـ/1977م).
30/ مالك بن نبي، شروط النّهضة، دار الفكر، (دمشق: ط15، 1438هـ/2017م).
31/ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، (دمشق: ط13، 1437هـ/2016م).
32/ محمد بن عرفة، المختصر الكلامي، دار الضّياء للنّشر والتّوزيع، (الكويت: د ط، 2014م).
33/ محمد بن يوسف السّنوسي، المنهج السّديد في شرح كفاية المريد، دار الهدى، (الجزائر: دط، دت)
34/ محمد حجي، الحركة الفكريّة بالمغرب في عهد السّعديين، دار المغرب، (الرّباط: دط، 1396هـ/1976م).
35/ محمد الكتّاني، سلوة الأنفاس، دار الثّقافة، (الدّار البيضاء: دط، دت)
37/ محمد المختار السّوسي، خلال جزولة، المطبعة المهديّة، (تطوان: ط1، 1379هـ/1959م).
38/ ومحمد مخلوف، شجرة النّور الزّكية، دار الفكر للطّباعة والنّشر، (بيروت: دط، دت).
39/ نجم الدّين الطّوفي، حلّال العُقد في بيان أحكام المعتقد، دار الفارابي، (بيروت: ط1، 2016م).
40/ عمّار جيدل، التّجديد في دراسة علم العقيدة، مجلّة الموافقات، الجزائر، 1416هـ/1995م، العدد4، ص40.